الفصل الثالث

انظر في يدك

«أموت إن لم تمكِّنّي من خدمتك»

مدام بابيت هيرسانت[1]

عندما التحقتُ بقوات الاحتياط في سنة 1993، لم يكن دافعي إلى ذلك أنني من أنصار الحرب أو اعتقادي بأن شنَّ الحروب أمرٌ محمود، بل كان التحاقي بها انتهازاً لفرصة سنحت لي - بوصفي طبيباً - للإسهام في تخفيف المعاناة التي تسبِّبها الحروب. ذلك أن واجبي الطبِّي في الجيش أن أُعنى لا بجنودنا فقط، بل أيضاً بالمدنيِّين المحاصَرين ضمن مناطق تقاطع النيران، وبمن نطلق عليهم اسم «الأعداء».

في سنة 2000 أُرسِلتُ إلى كوسوفو بعد أن أدّى تدخُّل قوات حلف شمال الأطلسي (الناتو) إلى توقُّف العمليات الحربية بين الألبان والصرب. وتوجَّهتْ وحدتي إلى فورت بيننغ في جورجيا، حيث تلقَّينا تدريباتٍ حربيةً تتعلق بقوانين الحرب وإزالة الألغام الأرضية والمهارة في استعمال السلاح، ودراسة الجذور التاريخية للنِّزاعات في منطقة البلقان. وقد زوَّدونا بالعُدَّة الميدانية الكاملة قبل أن ينقلونا إلى كوسوفو.

obeikandi.com

عملتُ في المستشفى المتنقِّل التابع لمعسكر بوندستيل، وهو مجمَّعٌ واسعٌ من الخيام المنتشرة تبلغ مساحته سبعة أميالٍ مربعة، مزوَّدٌ بكل ما يلزم من البنى الدائمة والأسوِجة، وبشتى أنواع العربات الحربية، ويؤوي عشرة آلاف جندي، ولا تتوقف فيه حركةُ الطائرات المروحية إقلاعاً وهبوطاً، وتنتشر فيه أبراجٌ للمراقبة لا يبعد أحدها عن الآخر سوى مئات الياردات، يرصد منها جنودٌ مسلَّحون الغاباتِ والطرقَ والمنافذَ المحيطة بالمعسكر. فمعسكر بوندستيل هو بمنْزلة مدينةٍ مكتفيةٍ بذاتها ومستقلةٍ في مياهها وشبكاتها الصحية، بل إن فيها فوجاً للإطفاء والشرطة، ومرافق لغسل الثياب وأخرى للخدمات الغذائية والطبية، وحتى سجن. ويضمّ كذلك كنيسةً صغيرة وصالة لعرض الأفلام ومكتبةً وصالون حلاقة، إضافةً إلى مقهى.

كان كلُّ مَنْ في المعسكر مدجَّجاً بالسلاح، فلا بدَّ من أن تحمل سلاحاً حتى وأنت تنتقل من المهاجع إلى خيمة الطعام. أما نحن الأطباء فكنّا نحمل أسلحةً صغيرة، فنتمكَّن من استعمال أيدينا بحرِّيةٍ في التعامل مع المرضى. وكان ينتابني شعورٌ غريب وأنا أفحص مريضاً في غرفة الإسعاف، والمسدس على جنبي الأيمن وجَعبة الذخيرة على جنبي الأيسر.

والأغرب فيما يتَّصل بالناحية الأمنية أن معظم ما كان يضاف إلى المعسكر هو أقرب إلى الخدمات الترفيهية ـ ككرة الطاولة، وكرة الطائرة، وكرة السلة، وقاعات التدريب الرياضي، وصالات العرض السينمائي والتلفزة، ومطاعم الهمبرغر، وغيرها من أسباب الراحة والمتعة، بحيث كان المعسكر يبدو كمخيمٍ صيفيٍّ بالغ التسليح.

ومع ذلك فكان ثمة شعورٌ دائم بخطر ماثل يُنْذِر بتجدُّد العمليات الحربية المتريِّثة بين الصرب والألبان، وبأنَّ أحداً سيشنُّ هجوماً. وكان الأمريكيون هناك يؤلِّفون جزءاً من قوات الناتو في المنطقة، بغية حفظ اتفاقية السلام الهش بين الفريقَيْن المتحاربَيْن. وأذكر أن قنابل حلف الناتو كانت قد توقَّفت عن السقوط طوال مدة وجودي هناك.

عند وصولي مع وحدتي صحبني فريقُ العمل الطبي وأطلعوني على الثُّكنات حيث التقيتُ زملائي الذين سيشاطروني غرفةَ إقامتي، وهم طبيبا أسنان، وطبيبٌ للأمراض النفسية. وكان مكان إقامتنا سرادقاً فسيحاً أرضُه من الخشب. وما إن وصلتُ ووضعتُ متاعي على سريري حتى أُخِذتُ إلى المستشفى لأعاين المكان الذي سأقضي فيه فصل الشتاء؛ فألفيتُه أكثر تطوُّراً من بعض المشافي الريفية في كانزاس حيث أعمل طبيبَ إسعاف!

وجدتُ الأقسام الخاصة بالأشعة السينية وتجهيزات الجراحة والتصوير بالرنين المغنطيسي على مستوىً رفيعٍ من التقانة الحديثة. وقد علمتُ أن معظم إصابات المرضى في بوندستيل لا علاقة لها بالحرب من قريبٍ أو بعيد. صحيحٌ أن ثمة عدداً من المدنيِّين يصابون عَرَضاً من انفجار ألغامٍ أرضيةٍ ما زالت موجودةً في المنطقة، لكن معظم مرضانا كانوا جنوداً يشكون من لَيٍّ أو وَثْءٍ في أرساغ أقدامهم أصيبوا به في أثناء مزاولتهم كرةَ السلة، أو أفراداً من خارج المعسكر تعرَّضوا لحوادث سيارات أو حروقٍ أو أعيرةٍ نارية. فكان عملنا في معظمه يتركز على جبر العظم الكسير، والتوليد، وإجراء عمليات استئصال اللوزتين ـ أي إننا كنا نعمل كمستشفى في بلدةٍ صغيرة.

في غضون الساعات الأولى من وصولي كوسوفو أُطْلِعتُ على خيمة الطعام وجلستُ لتناول وجبتي الأولى. كنتُ مرهَقاً وجائعاً بعد رحلتي الطويلة.

وما إن باشرتُ الطعام حتى دخلت القاعةَ امرأةٌ ألبانية تبدو عليها سيماء العمل المهني، وتوجَّهتْ مباشرةً إلى المائدة التي أجلس إليها.

قالت: «الدكتور مورش؟»

«نعم، هل من خدمةٍ أؤديها لك؟»

قالت بلسانٍ إنكليزيٍّ صميم: «أنا دريتا بيريزيتش، مترجمة الجنرال سانشيز. كنا ننتظر قدومكَ إلى هنا، ويودُّ الجنرال سانشيز أن يطلب منك معروفاً».

وعلمتُ أنه قد نَمِيَ إلى مسامع الجنرال أن قائد مجموعةٍ للعمل الإنساني قد أُفرد للعمل في معسكر بوندستيل، وقبل وصولي سأل عن مؤسسة «من القلب إلى القلب»، وعنّي شخصياً.

أخبرتني دريتا بقصةٍ فاجعةٍ حقاً تتعلَّق بجنديٍّ أمريكي من بوندستيل أقدمَ في مطلع تلك السنة على اختطاف الطفلة الألبانية مريتا شابو التي لم تتجاوز الحادية عشرة من عمرها، واغتصابها ثم قتلها ودفنها في كومةٍ من الثلج في ظاهر مدينة فيتينا المجاورة. وأعلمتني أن ذلك الفعل المروِّع قد وقع في أول يومٍ اضطلع فيه الجنرال سانشيز بمهمة قيادة معسكر بوندستيل.

obeikandl.com

أذكر أنني كنتُ أهزّ رأسي والسيدة دريتا تتحدَّث إليَّ. وتراءى لي أنني ربما قرأتُ عن هذه الحادثة المؤسفة في الولايات المتحدة في وقتٍ سابق. وكنت لا أكفُّ في أثناء حديثها عن التساؤل: لماذا تخبرني دريتا بهذا؟ فالطفلة قد قضت، والجنديُّ الجاني قد اعترف بفعلته وحُكِمَ عليه بالسجن مدى حياته في سجنٍ عسكري في فورت ليفنوورث. ما غرضها إذن؟ وماذا عساي أن أفعل، إذ لا يبدو من حديثها أنهم بحاجةٍ إلى طبيب.

قالت دريتا: «لا يستطيع الجيش أن يقدِّم لأهل مريتا أكثر مما فعل؛ لكن أهلها ما زالوا يعانون حزناً وألماً على ابنتهم. وقد صرَّح أبوها أخيراً عند نقطة تفتيشٍ عن أنهم بلا طعام، وأنه مريض».

قلتُ: «إذا كان مريضاً فليحضر إلى المشفى ليتولّى أيٌّ منّا علاجه. أحضريه إلى طبيب».

أجابت بعد تردّد: «إنه ليس بحاجةٍ إلى طبيبٍ قدرَ حاجته إلى مَنْ يمدُّ له يد المساعدة. إنه يألم بصورةٍ لا يمكن معها للجيش مساعدته».

ثم سألتني: «هل يمكنك أن تفعل شيئاً لهذه العائلة؟»

لم يخطر ببالي في تلك اللحظة ما يمكنني أن أفعل، لكنني قلتُ: نعم.

وفي غضون بضعة أيام كانت قافلتنا، المؤلَّفة من أربع عربات هامفي تقلُّني مع عشرة جنود بكامل عدَّتهم الميدانية، تشقّ طريقها خارجةً من معسكر بوندستيل عبر الجبال التي تفصل كوسوفو عن مقدونيا. فقد كانت عائلة شابو تعيش في قريةٍ صغيرةٍ تتألف من

عدة منازل وسط تلك الجبال. قضينا نحو ساعتين منذ أن غادرنا المدينة ونحن نجتاز طريقاً ضيِّقاً شديد الانحدار يصلح لقطعان الماشية أكثر مما يصلح لعرباتنا الضخمة؛ فالأشجار تحدق به بكثافةٍ تهشَّمت معها المرايا الجانبية للعربات، وكانت العربةُ الأولى قاب قوسين من الانقلاب.

كانت أسرة شابو تعدَم الكهرباء ووسائل الاتصال كالهاتف، فلم تكن ثمة طريقةٌ لإعلامهم بأن وحدةً عسكريةً في طريقها إلى نجدتهم. ولك أن تتصوَّر مدى الخوف الذي شعروا به لدى وصولنا إلى منْزلهم الصغير. نَشَرَ الجندُ عيناً تستطلع محيطَ المنْزل، وكأنهم بصدد تنفيذ عمليةٍ عسكرية، وفي مثل تلك الحالات يتعذَّر على المرء اتّخاذ كامل وجوه الحيطة.

خرج حمدي شابو والد مريتا ورمزية والدتها من البيت باحتراسٍ شديد ليستطلعا مَن القادم، وأطفالهما الأربعة الباقون يلوذون بأذيالهما؛ فإن مشهد جنودٍ أمريكيين بات منظراً مروِّعاً بعد ما حدث لمريتا. بادرتُ بالتعريف بنفسي مستعيناً بترجمان، فطفق الوالدان يبحثان لنا عن شيءٍ يُجْلِسانا عليه، وعن أكوابٍ يقدِّمان فيها الشاي لنا. وقد هزَّ مشاعري حفاوتُهما وحسنُ وفادتهما ولاسيما في ضوءِ كلِّ ما حاق بهما من الجندي الأمريكي الذي أورثهما حسرةً في قلبيهما. وهاهم الآن جميعاً محاطون بالجنود، ومع ذلك لا يألوننا إكراماً.

وتبيَّن لي من سلوك الأبوين أنهما لا يحملان حقداً على أحد برغم مصابهما. دخلتُ المنْزل وأخبرتُ حمدي أنني قادمٌ بصفتي صديقاً لا جندياً (مع أنني أرتدي بزَّةً عسكرية)، وأنني أريد أن أجري فحصاً طبيّاً كاملاً لَه ولأفراد أسرته، وهكذا كان، وأعطيتُهم بعضَ الأدوية.

ثم قلتُ لحمدي: «حدِّثني عن مريتا».

توجَّه بصره إلى الجدار هنيهةً واغرورقت عيناه. تتبَّعت مرمى بصره ولم أتمالك نفسي أنا الآخر عندما رأيتُ معطفَ مريتا الوردي وحقيبةَ ظهرها ما زالا معلَّقَيْن على الجدار، وكأنها ستدخل من فورها لارتدائهما استعداداً ليومٍ آخر في المدرسة.

بدأ حمدي حديثه قائلاً: «كانت مريتا طفلةً جميلةً وسعيدة، اعتادت أن تخرج إلى أعلى التلَّة القريبة لتلوِّح لطائرات حلف الناتو كلَّما سمعت أزيزها وهي تحلِّق فوق القرية متوجِّهةً لقصف المواقع الصربية. كانت تدرك أن تلك الطائرات قادمةٌ لإنقاذنا».

وعرفتُ منه أنه وأسرته قد أُلجئوا إلى الانتقال إلى فيتينا إبان الحرب. وقُبيل بدء هجمات حلف الناتو اعتقلت الشرطةُ الصربيةُ حمدي وزوجته وضُرِبا ضرباً مبرِّحاً ـ لا لشيء إلا لأنهما ألبانيان. وعانى حمدي جراحاً بالغة انبجسَ الدم معها من أذنيه، ثم أُخرجا من المدينة ورُميا في الغابة.

واسترسل حمدي قائلا: «لم يدرِ أولادُنا أين نحن، فاستولى عليهم الرُّعب». إلا أن وصول طائرات حلف الناتو أكسبَ أفرادَ أسرة شابو شعوراً بالاطمئنان إلى أنهم سيكونون في أمانٍ عما قريب. وكانت مريتا سعيدةً بصفةٍ خاصة لأن الطائرات تعني لها أنها ستعود إلى مدرستها لتصبح طبيبةً ذات يوم.

إلا أن مريتا خرجت إلى المدرسة ذات صباح ولم تعد منها. بحثَ عنها أفرادُ أسرتها حتى أعياهم البحث، فبلَّغوا عن اختفائها قسمَ الشرطة المحلية.

بعد يومين أُعلِمَ حمدي بوجود جثةٍ لطفلٍ في بناءٍ مجاور هدَّمه القصف، ويحيط به جنودٌ أمريكيون، عرَّفهم بنفسه وأخبرهم باختفاء ابنته.

يقول حمدي: «أدخَلوني البناء فرأيت ضابطاً أمريكياً يبكي. أبرزَ لي الضابطُ صورةً فوتوغرافية فتعرَّفتُها. وذَهلتُ عن نفسي عندما رأيتها. لقد ماتت ميتةً رهيبة».

كانت الصورةُ تُظهِر ابنتَه الجميلة وعيناها متورّمتان ومشوَّهتان، وآثار كدمات حول عنقها الغض، وما بدا اختراق رصاصةٍ في جبهتها، وشعرها الأشقر المتشابك منسدلٌ خلف رأسها. عرضَ عليَّ حمدي صوراً لمريتا عندما كانت تمور حيويةً وسعادة، وصوراً أخرى لها بعد العثور على جثَّتها، فبكيتُ عليها بكاءً كما لو كانت ابنتي.

طال حديثُنا عن مريتا، وطلبتُ أن أزورها حيث دُفِنت. أخذوني إلى مقبرةٍ صغيرةٍ لا تتميَّز قبورُها إلا بوجود عيدانٍ وتجويفٍ كأسيِّ الشكل على كلٍّ منها، وتلك من التقاليد الألبانية التي لم أدرك مغزاها. أشار حمدي إلى قبر ابنته، وكان واضحاً أن جدران القبر قد بدأت تتداعى، وأن الهوامَّ والقوارض تعيث فيه.

سألتُه: «أين شاهد القبر؟»

فأجاب: «أنا أعمل حطاباً ونَحَّالاً، ونحن في حربٍ كما ترى، ولا يسعني والحالة هذه شراء شاهد».

وفي طريق عودتنا إلى منْزله تنازعتني مشاعر كثيرةٌ من الغضب والسخط والاشمئزاز على ما فعله ذلك الجندي. وكنتُ في الوقت نفسه ضيِّقَ النفس محبَطاً. قلتُ في نفسي: إذا كان لا يمكننا أن نعيد الطفلة إلى الحياة من جديد، ولا نستطيع أن نغيِّر اقتصاد هذه القرية في كوسوفو، كما يتعذَّر علينا أن نلقي المحبة والألفة بين الأطراف المتناحرة، فماذا عسانا أن نقدِّم لإنسانٍ في مثل هذا الوضع إذن؟ ما هو الشيء الصغير الذي يمكن أن يُقَدَّم بحبٍّ كبير ويكون ذا معنىً لهذه الأسرة المكلومة؟ تأمَّلت معطف مريتا الوردي، ولم تطاوعني نفسي إلا أن أفعل شيئاً.

وسرعان ما التمع في خاطري قولٌ للكاتب فريدريك بواخنر: «إن السلام الحقيقيَّ المقيم لا يُنال في وضع التراجع أو الانسحاب من المعركة، بل في معمعانها»(2). فتوجَّهتُ من فوري إلى عربة الهامفي

وأخـرجتُ حـاسـوبي المحمـول من مـتـاعي، وعـدتُ به إلى منّزل شـابو. شغَّلتُه أمامهم وفتحتُ برنـامجاً خـاصاً بالتصاميم وبدأتُ ـ باستعمال الفأرة ـ أرسم شاهد قبر.

سألتُ: «ماذا تحبُّون أن يُكتَب على شاهد قبر مريتا؟»

نظر حمـدي وزوجته كلٌّ منهما إلى الآخر وتهامسا لحظةً ريثما توضَّحَ لهما ما أفعله. سألاني: «ستصنع شاهداً بالحاسوب؟»

قلتُ: «إنني أصمِّمه بمساعدتكما، ثم يصنعه شخصٌ آخر».

بقـيت نفـسي تحـدّثني بأن شـيـئـاً يجب أن يقـدَّم لهـذه الأسـرة المفـجـوعـة؛ شـيـئـاً يخلِّد اسم مـريتـا. نظـرتُ إلى رفـاقي من الجنود وأومأتُ إليهم أن ليست لديَّ في تلك اللحظة أيُّ فكرةٍ عمّا يجب فعله، فنحن بصدد قضيةٍ مهمةٍ مع هذه الأسرة.

ثم دخل الجميع في حديثٍ عمّا يجب أن يُكتَب على الشاهد تخليداً لذكرى مريتا. قال البعضُ إن المُعَلَم يجب أن يحمل عَلَم ألبانيا، وقال حمدي إنه يجب أن يحمل العَلَم الأمريكي أيضاً. توقَّفتُ عن الرسم متسائلاً: «أليس مَنْ قَتَلَ ابنتك أمريكي؟»

قال: «مع أنني لستُ رجلاً متعلِّماً، لكنني أجزم أن هذا الجنديَّ لم يكن متقيِّداً بتنفيذ أوامر رؤسائه عندما قتل ابنتي، فمن الجور أن ألقي باللوم على الأمريكيين جميعاً أو على الجنود الأمريكيين بلا استثناء».

obeikandl.com

نقشتُ العَلَمَيْن في زاويتي الشاهد العلويتين، وأبرزتُ اسم مريتا في وسطه مع بعض التواريخ المهمة لحياتها القصيرة.

ثم سألتُ الوالدين: «هل ترغبان في إضافة شيءٍ آخر؟»

قال الوالد: «أضِفْ هذه العبارة: (لقد علَّمتنا مريتا كيف يحبُّ أحدُنا الآخر)».

قلت مازال هناك فراغ قد يتَّسع لصورةٍ لها. فأطلعوني على صورةٍ لها حملتني على البكاء من جديد، وقد ظهرت فيها الطفلةُ كملاك. وتذكَّرت أولادي وتساءلت كيف يمكن أن يحتمل والدٌ موتَ ولده، ولاسيما إذا حصل بتلك الطريقة الوحشية.

استعملتُ آلة التصوير الرقمية لتحميل الصورة على الحاسوب، وأضفتُها إلى الشاهد. وعلى شاشة حاسوبي أثبتُّ تنويهاً بمريتا، فسُرَّ الأهل سروراً عظيماً. قلتُ لهم سأعود عما قريب ومعي الشاهد لنقيم لها مراسم دفنٍ لائقة.

حِرْتُ في الاهتداء إلى وسيلةٍ لصنع الشاهد، غير أني علمتُ أن بعض الأفراد يحبّون المساعدة ولا يعرفون كيف يقدِّمونها. فأردت أن أذيع هذا الخبر، وأرى كيف يستجيب الناس.

وواقع الأمر أن كثيراً من الناس لا يساعد بعضُهم بعضاً بسبب أنهم لا يعرفون طريقاً إلى ذلك، أي بسبب نقصٍ في المعلومات لديهم. ومع ذلك فهم مستعدّون في قرارة أنفسهم لخدمة الآخرين ومدركون لحقيقة كونها واجباً لازماً، وعاملاً من شأنه أن يجعل حياتهم أكثر معنىً وأعمق غاية. كلُّ ما يحتاجون إليه هو معرفة بعض المفاتيح.

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى شاع نبأ زيارتنا لعائلة شابو بين الجنود في بوندستيل وغيرها من القواعد الأمريكية في أنحاء كوسوفو. وفي غضون أيام كان الضباط يستوقفونني حيثما كنتُ ويسلِّمونني رِزَماً من أموالٍ تبرَّعت بها وحداتُهم. ومنهم مَنْ جاءني والدمع في عينيه قائلاً: «نشكرك إذ أتحتَ لنا فرصة التعبير عن مشاعرنا تجاههم».

وبالطبع فإن أغلب الجنود لم يلتقوا أيّاً من أفراد أسرة شابو، بل علموا فقط أنَّ خَطْباً جَلَلاً قد حلَّ بهم، وأنَّ ثمة وسيلةً متاحةً للوصول إليهم عن طريق شاهد القبر. وفي غضون أيامٍ أيضاً تجاوزَ مجموعُ تبرعات الجنود الأمريكيين 4000 دولار قُدِّمت تخفيفاً لمعاناتهم.

اهتدينا إلى نقَّاشٍ أبدى استعداداً لصنع النُّصْب لمريتا كما يريده أهلها. وقمنا بزيارةٍ أخرى غير معلنة لعائلة شابو صادفت في يومٍ يحتفل فيه المسلمون بانتهاء شهر رمضان، لكننا لم ندرك ذلك إلا عند وصولنا.

عندما خرج أفراد أسرة شابو لاستقبالنا يحملون حلوى العيد أخبرونا بأنهم كانوا ينوون قضاء يومهم في قريةٍ أخرى، غير أنهم عدلوا عن ذلك بناءً على إلحاح الأولاد الذين "خالجَهم شعور" بأن الجنودَ الأمريكيين سيحضرون لزيارتهم. وعند وصولنا كانوا بالفعل خارجين يترقبون أن تلوح قافلتنا عند منحنى الطريق الجبلية الضيِّقة. قال حمدي وهو يرحِّب بنا إن الله تعالى قَدَّرَ اجتماعَنا في ذلك اليوم الإسلامي المبارك ذي الصبغة الخاصة.

وبعد أيام قمنا بفتح حسابٍ مصرفيٍّ في البلدة المجاورة، بالأموال التي جُمعت من الجنود. وكان مشهداً مثيراً حقاً عندما دخل عددٌ من الجنود الأمريكيين، بلباسهم المموَّه وخوذاتهم وكامل أسلحتهم إلى المصرف لهذا الغرض. تقدَّمتُ إلى أمينة الصندوق بنفسي وقلتُ لها إنني أريد فتح حساب. نظرتْ إليَّ ثم إلى سائر الجُند الذين ملؤوا ردهةِ المصرف، ولم ترَ بدّاً من أن تومئ بالموافقة. وقد سارع المراجعون إلى إخلاء البناء لدى وصولنا، في مشهدٍ يشبه ما كنّا نشاهده في الأفلام القديمة عند وقوع سطوٍ مسلَّحٍ على مصرف!

ولما كانت قيمةُ الوديعة أكبرَ بكثيرٍ من كلفة شاهد القبر، فقد ضَمَّنْتُ صكَّ الحساب شرطاً يفيد ألا تُسحَب الأموال إلا إذا كانت ستُنفَق في أغراضٍ إنسانيةٍ، واستَشْهَدْتُ معي على ذلك قسيسَ الجيش. ثم إن قيادة الجيش خوَّلتني مواصلةَ جهودي الإنسانية مادمتُ هناك، وزوَّدتني لهذه الغاية بإرسالياتٍ من الملابس والأدوية والنظارات جرى شحنُها إلى القاعدة، ثم قام متطوِّعون بتوزيعها على المحتاجين.

وفي هذا السياق جَمَعَتْ نوادي ليونز في ولاية إنديانا 3000 نظارة طبيّة لشعب كوسوفو. وتولّى طبيبُ العيون في بوندستيل الإشراف على توزيعها على مَن هم في حاجةٍ إليها في الإقليم. كذلك قام تلامذةُ مدرسة بلاك بوب الابتدائية في كانزاس بتجهيز اثنين وعشرين صندوقاً تحتوي على معاطف شتوية للأطفال، إضافةً إلى قفازاتٍ وقبَّعات. ووجدت أن الحساب المصرفي قد يستوعب نفقات شحن كل تلك المساعدات.

بعد أسابيع انطلقنا إلى الجبال مرةً أخرى بشاحنةٍ تحمل شاهد مريتا. وعند وصولنا استُقبلنا استقبال الأهل لإخوانهم، فقد بعثتْ زيارتُنا الأولى في نفوسهم الأمل، فجعلتنا إخوةً أو كالإخوة. بكى الجميع عند رؤية الشاهد، وعليه صورة مريتا وهي تبتسم ابتسامتها البريئة. وكانت عواطف الوالدين جياشةً بنوعٍ خاص، فما تمالكا أن عانقاني بحرارة شاكرَيْن. وبدأتُ أشعر فعلاً أن مريتا هي بمنزلة ابنتي تماماً. واستحضرتُ قول آن لاموت: «لا شيء كمعاناة ذلك الفيض العارم من الحزن الصريح يمكن أن يكون دواءً لآلامنا»[3]. وكان ذلك حقاً مشهدَ حزنٍ وراحةٍ في آنٍ معاً.

أعيد دفن مريتا في مقبرةٍ خاصةٍ بالمسلمين، وكان شاهدُ قبرها بارزاً بين الشواهد الأخرى، وعلى مقربةٍ منها موقعٌ مقدَّسٌ جليل هو قبرٌ جماعيٌّ لجنودٍ ألبانيّين قَضَوا في مواجهةٍ عسكريةٍ مع الصرب. هاهي مريتا اليوم ترقد مكرَّمةً عزيزةً لا تُنسى، وشاهد قبرها بادٍ للعيان كالزهرة.

وقد شهدَ هذه المراسمَ المختصرة في موقع الدفن الجديد ممثِّلون عن مذاهب دينيةٍ عدة؛ لكن الفوارق انصهرت وتلاشت، وساد الموقفَ جوٌّ من الحزن المشوبٌ بالأمل، أفضى إلى تجربةٍ واحدةٍ مشتركة ـ شكران الإحسان. وكما كتبَ هنري ناوين: «إن التجربة الفريدة في بابها كثيراً ما تتكشَّف عن إبعادٍ راسخٍ في الإنسانية»[4]. وهذه التجربة هي بحقٍّ تجربةٌ استثنائية ولا يمكن أن تُنسى.

ولئن كانت مرارةُ تجربة مريتا وأسرتها تتجاوز كلَّ الحدود، فقد تمكَّنّا، بعملنا البسيط هذا، أن نشترك جميعاً في الشعور بإنسانيتنا عن طريق خدمة أحدنا للآخر. وأصبح من واجباتنا أن نرحِّب بكل شخصٍ نلقاه فنكرم ضيافته؛ فإن حسن الوفادة ـ كما كتب ناوين ـ «يجب ألاّ يقتصر على معناه الحرفي المتمثِّل في الترحيب بضيفٍ يزورك وإكرامه، بل أن يكون موقفاً أساسياً منك تجاه أخيك في الإنسانية، يمكن تجسيده بطرائق شتى»[5]. وفي حالتنا هذه جسَّدناه بصنيعٍ بسيط لأهل فتاةٍ بريئةٍ قُتلت غيلة.

كيف عرفتُ أن استعمال حاسوبي هو بالضبط ما تحتاج إليه أسرة مريتا آنذاك؟ لا أدري. غير أن تلك التجربة علَّمتني أن ما في يدك، مهما كان صغيراً أو بسيطاً، قد يفي بالحاجة تماماً. فإذا اتفق أن كنتُ أملك حاسوباً، والجنود في أنحاء كوسوفو يملكون مالاً، فذلك يكفي لتكريم مريتا وأسرتها. وفي الفصل السابق من هذا الكتاب ذكرتُ حادثة الرجل المحتضَر الذي عرضَ قطعاً من اليوسفي يبلُّ بها حلقَ نظيره المتألِّم. أما رأيتَ أن ما كان في يده هو بالذات ما سدَّ حاجة أخيه؟ إذن فلنعلم أن هذا هو المدار دوماً. قد يخيَّل إلينا أننا بحاجةٍ إلى مزيدٍ من التعليم والدُّربة وتقويم المهارات، وإلى مزيد من الوقت والمال؛ والحقيقة أننا لسنا بصدد ذلك كلِّه. إننا بأنفسنا نؤلِّف الإجابات عن متطلَّبات الآخرين.

على أنه قد يصعب علينا أحياناً أن نرى في أنفسنا استجابةً لدعاء الآخرين. فبدلاً من أن ننتظر حتى تتاح لنا فرصةُ تنظيم مشروعٍ كبيرٍ لمدّ يد العون إلى الناس، نستطيع ـ بما هو متاحٌ في

أيدينا ـ أن نفعل شيئاً مفيداً حيث نحن. وأضرب مثالاً: فقد تناولتُ مرةً موضوع خدمة الآخرين في حديثٍ لي مع نفرٍ من المثقفين في غلاسكو باسكتلندة. وبعد انتهاء الحديث أقبل عليَّ رجلٌ تبدو عليه أمارات خيبةٍ وإحباط، وقال إن أهل محلَّته بحاجةٍ إلى بناء دارٍ للأمهات غير المتزوجات يضعن فيها أحمالهن، وليس هناك ثمة مرفقٌ في المنطقة يفي بالحاجة، وأنه يرى في نفسه الاستعداد والقدرة على بناء مثل هذه الدار.

قلتُ: «أهنئك، وأتمنى لك التوفيق في مسعاك المهم هذا».

«إنك لا تدرك مقصدي يا سيدي، أريد إنشاء الدار، لكن الشكليات المكتبية الحكومية تعوقنا عن الإقلاع في المشروع. إنني أشعر بالخيبة من الطريقة التي تَحول فيها الحكومة دون تحقيق فكرةٍ عظيمةٍ كهذه».

«متى بدأت مساعيكم في هذا المضمار؟»

قال والسخط بادٍ في نبرة صوته: «أكثر من سنتين».

«وفي غضون هاتين السنتين كم عدد النساء اللواتي تمكَّنتَ من تقديم المساعدة لهن؟»

أجاب متعجِّباً: «ولا واحدة! إن الحكومة لا تتيح لنا الفرصة!»

قلت: «لديَّ اقتراح. هل عندك منزل؟»

«نعم».

«هل فيه غرفةٌ إضافية لا تحتاج إليها؟»

«نعم».

«إذن افتح تلك الغرفة لواحدةٍ من النساء ممَّن هنَّ بحاجةٍ إليها الساعةَ، ولا تنتظر حتى تحصل على الترخيص بالبناء لكي تنطلق في برنامجك. ابدأ بما لديك الآن».

ولعمري إن الأم تريزا لم تنتظر حتى إنجاز دار المعوزين لكي تلتقط المرأةَ المحتضَرة من الطريق؛ وكذلك لم تنتظر مؤسسةُ «من القلب إلى القلب» حتى تتولّى جهةٌ غير ربحيةٍ ترميمَ جمعية الشبّان المسيحيين في بيليز، بل حملنا أنفسنا على اتخاذ الخطوة الأولى التي هي أهم الخطوات.

وهذا الرجل الطيب صاحب النوايا الحسنة لم يدرك أنه يستطيع الشروع بما يتوفر لديه في ذلك الوقت. والحقيقة أن من العوامل التي تجعلنا نحجم عن مساعدة الغير أننا نتطلَّع إلى ظروفٍ جدٍّ مؤاتية للانطلاق، ولن تتحقَّق مثل تلك الظروف البتة. إن من يحتاج إلينا لا يريد أكثر مما هو متاح في أيدينا الآن مهما صَغُرَ شأنه ـ كحاسوبٍ محمول أو غرفةٍ إضافية أو غير ذلك.

بعد بضعة أشهر انتهت مهمتي في كوسوفو، فقَفَلتُ عائداً إلى وطني وأسرتي وعملي. وكان من المستبعد احتمال عودتي إليها كرةً أخرى. لكنني ـ وقد بدأت بإعداد كتابي هذا ـ لم أستطعْ تنحيةَ صورة عائلة شابو من ذاكرتي، وتشوَّقتُ إلى الوقوف على أخبارهم، إذ باتوا جزءاً من أسرتي.

فاتصلتُ بعائلة تبشيرية كنتُ قد تعرَّفتُ إليها مدةَ وجودي في كوسوفو، ووافقتْ على مساعدتي في العودة للقاء أسرة شابو. هل سيُكتب لي لقاؤهم مرةً أخرى؟ هل سأحمل معي بعض الأدوية لهم ولغيرهم؟ ما السبيل إلى إعلامهم بأني قادم؟

سافرتُ جوّاً إلى مقدونيا في إبان الحرب الأهلية هناك، فوجدتُ المعبرَ الحدوديَّ إلى كوسوفو مغلقاً بسبب أعمال العنف. رحتُ أسائل نفسي: «هل يستحق مني ذلك كلَّ هذا العناء؟ ماذا لو أنهم انتقلوا من المنطقة نهائياً؟ وما أغناني عن كلِّ هذه المشقَّة؟» كان عليَّ أن أمشي الأميالَ الأخيرة سيراً على الأقدام، فاستأجرتُ فَتَيَيْن لمساعدتي في حمل صناديق الأدوية.

سرتُ ساعاتٍ أتنفَّس دخانَ عوادم السيارات قبل أن أفلح في عبور الحدود ولقاء صديقيَّ المبشِّرَيْن راندي وليسيا هارفي. وكان لقاؤهما برداً وسلاماً عليَّ بعد يومٍ شاقٍّ مجهدٍ!

في اليوم التالي توجَّهنا إلى الجبال ووصلنا إلى منْزل عائلة شابو. أنكرني حمدي وزوجه بادئ الأمر وأنا في ملابسي المدنيّة، ولما عرَّفتُ بنفسي أقبلوا إليَّ يزفُّون، وعاملوني كعزيزٍ لهم طال فقده، وبادروا إلى تقديم الشاي والسجائر. (والظاهر أن تأثيري الطبِّي فيهم كان محدوداً!)

دخلتُ المنْزل ونظرتُ إلى الجدار: كانت حقيبة مريتا المدرسية ماتزال معلَّقة، وتحتها علمٌ ألباني وآخر أمريكي، مع رسالةٍ مربوطةٍ على الحائط من الجنرال سانشيز تأمر القائمين على القواعد العسكرية الأمريكية الأمامية بتيسير أمور عائلة شابو ومعاملتهم بما يليق بهم من تكريمٍ واحترام.

قال لي حمدي: «عندما تكون بين ظهرانَيْنا أشعر كأن ابنتي قد بُعثت حيَّة».

كان وجودي بينهم من جديد بمنزلة جمعٍ للشمل. وقدَّمتُ لهم ما أحضرتُه من هدايا ـ قبَّعات ونظارات شمسية وحليّ ـ وتجاذبنا أطراف الحديث عمّا فات من أخبارنا. وجدتُ عندهم أبقاراً قُدِّمت إليهم وسُدِّد ثمنُها من الحساب المصرفي الذي فتحناه قبل عام.

ودَّعتُهم بعد قضاء يومٍ حافلٍ بالعواطف الدافئة، وعرَّجتُ في طريق خروجي من القرية على قبر مريتا زائراً، فألفيتُه وقد اكتنفته الأعشاب من كل جانب كما اكتنفت المباني المدمَّرة في المنطقة كلِّها. إلا أنه ما زال نُصْباً بارزاً ناطقاً على نقاء طفلةٍ وفضيلة قوم، ولسان حاله يقول: «لقد علَّمَتْنا كيف يحبُّ بعضُنا بعضاً». وكأني بهذا النُّصْب، الذي نُحِتَ من الحجر بأدواتٍ قاسية، قد نُحِتَ في سويداء قلبي أيضاً.

obeikandl.com